

# مَرثِيَّةٌ لِشَيْءٍ جَمِيلٍ

فدوى طوقان

(١)

ظَلٌّ شَفِيفاً كَالضُّوءِ، نَقِيّاً وَرَهِيْفاً  
ظَلٌّ جَمِيلاً وَمُعَافِيّاً  
تَأْكِيداً لَوْجُودِي ظَلٌّ، رَفِيقَ العُمُرِ وَنُبْضَ الشَّعْرِ

كَمْ شَعٌّ بَرِيقٌ قَصِيدِي  
مَنْ عَيْنِيهِ الصَّافِيَيْنِ  
عَرَفْنَاهُ أَقْلَامِي  
أَلْفَنَاهُ أَوْرَاقِي  
كَمْ بَرَعٌ أَمَامِي وَجْهًا طُفْلِيًّا قَمَرِيًّا  
وَتَمَاهِي مَعَ أَشْعَارِي

ظَلٌّ مَعِي  
يَتَجَدَّدُ فِي الشَّرِّيَانِ كَمَا  
يَتَجَدَّدُ فِي عُرَّةِ آدَارٍ  
وَرَقِّ الأَشْجَارِ  
يَتَحَرَّكُ كَيْفَ تَحَرَّكْتُ، مَعِي فِي العُقُودِ  
وَمَعِي فِي الصَّحُودِ

في عَبَقِ الْقَهْوَةِ كُلِّ صَبَاحٍ  
أَتَنَفَّسُهُ عَطْرًا، رَاحَةً رُوحٍ، نَشْوَةً  
فِي كُلِّ مَسَاءٍ  
يُؤُونِي مَهْدَ رُقَادِي  
وَيَدِرُّنِي بِالذَّفَاءِ، يَمِيلُ عَلَيَّ وَجْهِي وَيَقُولُ  
نَعَمْتُ مَسَاءً  
فَإِذَا الصُّبْحُ تَنَفَّسَ  
وَشَدَّتْ فِي الْأَغْصَانِ الطَّيْرُ  
قَامَ يُدَاعِبُ أَجْفَانِي  
يَمْسُحُ بِالكَفَّيْنِ النَّاعِمَتَيْنِ جَبِينِي  
وَيَقُولُ: صَبَاحُ الْخَيْرِ  
لَا زَمَنِي وَاحْتِلْ مَسَاحَةَ لَيْلِي وَنَهَارِي  
طِفْلاً أُسْطُورِيًّا ظِلًّا جَمِيلًا وَمُعَافَى  
وَصَدِيقَ الْعُمُرِ وَتُورًا لَا يَحْتَبُونَ فِي أَشْعَارِي

(٢)

وصحوتُ علي  
حُلْمُ كَابُوسِي جَهْمِ ذَاتِ صَبَاحٍ  
الْوَجْهَةُ النُّرَانِيَّةُ الطُّفْلُ بَدِيحُ الْقَسَمَاتِ  
طَعْنَتْهُ سَكِينُ الْكَلِمَاتِ...  
وَسَقَتْهُ كَأْسَ الْمَوْتِ الْمَرَّةَ  
مَرَّقَتِ الْخَدَّيْنِ الْوَرْدِيَيْنِ  
هَشَمَتِ الرَّأْسَ الْيَانِعَةَ النَّضْرَةَ

يا أَجْمَلُ مَا ظَلَّ بِعُمْرِي  
مَعْنَى عُمْرِي وَقَوَامَ وَجُودِي  
أَكْذَا تَغْتَالِكِ صَاعِقَةُ الْعُضْبِ الْهُوجَاءِ؟  
أَكْذَا تَدْرُوكِ رِيَاخَ الْعُضْبِ الْوَحْشِيِّ  
رَمَادًا وَهَبَاءَ؟

.....

يا أَجْمَلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ  
يِرْحَمُكَ اللَّهُ!

يَرْحَمُكَ اللَّهُ!

حُلْمٌ

حُلْمْتُ...  
رَأَيْتُ قِصَائِدَ قَلْبِي تَمُوتُ

وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى

حَزْنْتُ...  
وَقَمْتُ إِلَيْهَا أَلْمَلْمَهَا جُنْثًا وَرُفَاتُ

بَكَيْتُ عَلَيْهَا وَغَسَلْتُهَا بِالدَّمِوعِ

وَأَسَلَّمْتُهَا لِمُهَبِّ الرِّيَّاحِ

.....

وَعَدْتُ «بِخَفِيِّ حَيْنٍ»

بِكَفَيْنِ فَارِغَتَيْنِ

وَظَلَّ شُرُودُ يَرْفُ عَلَى مُقْلَتِي وَذَكَرِي

بَبَيْتٍ لَهَا مَعْبِدًا يَتَهَجَّدُ قَلْبِي لَدَيْهِ -

وَيُضِيءُ الشَّمُوعِ

لِذَكَرِي قِصَائِدَ مَا تَتْ

وَلَيْسَ لَهَا مِنْ رَجُوعِ

مُؤَاوَسَاةِ

وَاسَيْتُ قَلْبِي الْعَوِي

وَقَلْتُ يَا قَلْبُ حَسْبُكَ

لَا تَأْسَ أَنْ مَاتَ حُبُّكَ

أَضْحَكَ عَلَى الْحَبِّ وَأَخْدَعُ

بِالضَّحْكِ حُرْنًا عَصِي

كُوكِبِ

عَجَبًا يَا كُوكِبًا صَارَ رَمَادًا وَتَلَاشِي

فِي الْمَدَى اللَّامِتْنَاهِي

كَيْفَ أَمْسَى وَجْهُكَ الْغَائِبُ عَنِي

نَهَرَ ضَوْءٌ، هُوَ مَنْفَصَلٌ عَنكَ وَلَكِنْ

لَمْ يَزَلْ مَسْرَاهُ يَجْرِي بِأَنْجَاهِي؟!!